الفصل الرابع

السعي نحــو قيم الحيــاة

وضعنا فيما مضى سلسلة من الانتفاضات والأشكال المميزة التى يكتسبها الجسم والقلب والأنا والذكاء أثناءها. ولكن ما هدف كل هذه الانتفاضات؟ وماذا يوفر للشخصية التى تتعرض لها قيمتها وعمقها؟ هذا ما سنراه من دراستنا لقيم الحياة التى تدفع الشباب – أو على الأقل الأخيار منهم – نحو الرفعة.

مبدأ القيمة: يسمى "قيمة" في علم النفس كل ما يحقق الإشباع لحاجة من حاجاتنا سواء كان ذلك شيء أو كائن أو حدث أو فكرة. والقيمة ليست إلا إحساسًا بالثمن الذى يقدر لشيء ما، ولذلك كانت القيمة ذاتية، وقد لا تتفق والترجمة الاجتماعية المألوفة للقيمة التجارية لإنتاج أو عمل معينين.

اكتشاف المراهق للقيم: ينشط مبدأ القيمة منذ وقت مبكر جدًا عند الطفل، ولكنه لا ينفصل عن موضوعه ويكون الوجه الآخر للرغبة. وفي حوالى سن الخامسة عشرة، يتسع مجاله وتزداد قوته فجأة، فيصير المراهق أكثر حساسية نحو الثمن الذى يعول عليه من وراء الأفعال والمواقف التى تتفق واهتماماته وأهدافه. وهكذا لم تعد تحية الصباح التى يلقى بها إلى شخص ما مجرد عادة، بل تكتسب قيمة، وكذلك يكون توقيعه باسمه. ولا يرد هذا لمجرد الحركة العاطفية، بل لأفكار ومبادئ يرى المراهق أنها حقيقية، ففى تصور الشباب للعالم، يقوم عالم للقيم إلى جوار عالم المعرفة، ويسهم كثيرًا في تحديد أفكارهم وتنظيم سلوكهم.

ولا حصر لهذه القيم، فهى اقتصادية وسياسية واجتماعية وأخلاقية وجمالية ودينية إلخ ... ولا تكتشف عادة دفعة واحدة، وبالتالى لا تظهر بملامح القيم الكلاسيكية التى تتحدث عنها الفلسفة مثل الحق والجمال والخير، ويراها المراهق في أول الأمر مختلطة، غير محددة، متضارعة فيما بينها، ويعثر عليها من خلال قراءاته في الشخصيات الحقيقية أو الخيالية التى تتمثل فيها هذه القيم، وهكذا

يعتبر رودريج[*] والمشرف العائلى ليسا إلا شيئًا واحدًا، كما يتجسد الفن في شخص مشيل إنجلو، وقد يحدث ألا يتخطى المراهق هذه المرحلة، ولكن لدى من يفكر ويدرس من المراهقين، سرعان ما تتلخص القيم من هذه الشخصيات وتأخذ شكلاً مجردًا يصير مبدأ للعمل.

ويمتزج اكتشاف القيم في الواقع باكتشاف الثقافة، إذ تتمثل كل حضارة في جهاز من القيم ينظم حياة الجسم الاجتماعى في وقت معين، وبذلك تكون إحدى المهام التى تلقى على عاتق المدرسة – كما رأينا – نقل هذه الثقافة إلى الشباب لتمكينهم من الاشتراك في حياة الجماعة وتقاليدها. ولكن ليس على الجماعة إلا التمهيد لعمل الفرد، فهو الذى يختار إلى حد ما القيم من بين ما يعرض عليه منها، وتنتظم هذه القيم بداخله بطريقة شعورية أو غير شعورية في تسلسل يعكسه سلوكه، وبداخله أيضًا يتحقق التوافق بين القيم التى يسمح بها المجتمع الذى يعيش فيه المراهق، وتلك التى تعبر عن ميوله الخاصة.

إن ما يثير اهتمام الشباب قبل كل شيء، هو الحياة، حياتهم الخاصة التى يشعرون أنها قد وصلت إلى نقطة حاسمة مثل حياة الآخرين، وكذلك الحياة عامة، فهى تجذبهم وتسحرهم. وفى هذه اللحظة، يصبحون أكثر إحساسًا بالجانب الديناميكى للأشياء، وكذلك بنموهم، ويكتسبون الإحساس بالزمن وبالتغيير، وهذه أفكار يصعب على الطفل فهمها. وفي مقابل هذا، تظهر فكرة الموت وتصير أكثر إلحاحًا، وتبدو لهم الطبيعة ككائن حى يتحدون معه اتحادًا عاطفيًا، وبذلك تكون القيم التى يحبونها هى أيضًا قيم الحياة، وهى القيم التى تستطيع إشراكهم تمامًا في الديناميكية العامة.

ويعطى كل شاب، حسب طبيعته، المكان الأول لإحدى عائلات يتمناها المراهق لنفسه على جهاز القيم الذي يعمل بداخله

([*]) بطل التراجيديا الكلاسيكية المعروفة "السيد" للكاتب الفرنسى الكبير كورنى.

والذى يتيح له أن يعد "خطة حياته" فبالنسبة للشاب العملى الذى يهمه النجاح والكسب تتفوق القيم الاقتصادية، بينما تظهر عند الآخرين قيم اجتماعية، وخاصة ذات طابع عائلى، كتلك التى تلاحظ كثيرًا عند الشابات. ويلاحظ أيضًا أنه بمجىء سن النضوج، يزداد الاهتمام كثيرًا بكل ما هو نقص. أما أثناء المراهقة، فإن الاختيار لم يكن قد تم بعد، كما أن الفرد لم يكن قد أحس بعد بإلحاح القيم المادية، وهكذا يكون "مهيأ"، وكذلك قادرًا على "إنكار الذات"، وهذان الشرطان يوضحان المكان المرموق الذى تشغله في ذهنه القيم الروحية، وهى قيم جمالية وأخلاقية وفلسفية ودينية بقدر ما يسمح له وقته بالاهتمام بها.

أولوية القيم الجمالية: إن الشباب – كما يقول رودا هم "خدام في محراب الجمال"، ةويقدمون القيم الجمالية على كل شيء، لذا يؤدى حب الجمال – وبخاصة عند بعض الشابات – إلى عبادة حقيقية للجسم أو للفن.

ولا شك أن تفضيل كل ما هو جميل يرتبط بالنمو البيولوجى، وخاصة بانتفاضة الحياة الجنسية، وليس حب التزين والزينة وكل جميل يجذب النظر إلا مكملاً لعمل الطبيعة التى تعطى قرب نهاية المراهقة، للبشرة وللنظرة ولأشكال جسم الفتاة جمالاً متجددًا لا يبارى، ولا يسعنا إزاء ذلك إلا التفكير في التفتح الذى يشاهد في عدد كبير من الأنواع الحيوانية عند ظهور النضج الجنسي والذى يمتاز في الطيور بالتغريد واكتساب الريش للألوان الزاهية. وحتى إذا ما استبعدنا هذا التشابه الذى قد يثير الجدل، نجد أن الفن هو أكثر نشاطات الفكر الكبرى اتصالاً.

ولا يشعق الجمال فقط في الأجسام والأعمال الفنية والمناظر الطبيعية، بل وفى المجالات التى يلغى منها عادة في سن النضوج، مثلما في مجالات المعرفة والعمل. وهكذا لا يظل الشباب جامدًا أمام الحركة الجميلة أو حتى إزاء العرض الجميل، فالشباب لا يتفهم الأخلاق أو الحقيقة بعيدًا عن الجمال.

وهكذا تبدو أولوية القيم الجمالية مرتبطة بمرحلة من مراحل التطور، وهذا نجد صداه، حتى في الطبائع التى تخلو من الشاعرية والنبل وقد تؤدى – إذا ما بلغت حد التطرف – إلى خلق عقلية تحب الفن وتعجب بكل ما هو جميل. ولكن ما أن يستعد هذا الإحساس بالجمال استعداد حقيقى حتى تزدهر أعمال الشباب التى تتيح للفنان – ولو أنها لا تبلغ مستوى التحفة الفنية من النضج – فرحة الكشف عن موضوعات أساسية لإلهامه من خلال التألق المثالى لذاته.

المثالية الأخلاقية: أود وأنا أتقدم من مجال القيم الأخلاقية، أن أقضى أولا على وهم شائع، فإن السعى إلى هذه القيم لا يعنى أن للشباب سلوكًا يصلح كقدوة، بل يعنى أنهم يصبحون فقط أكثر إحساسًا بالرغبة في الخير. ومع قدرتهم منذ الآن على إقامة حياة أخلاقية شخصية، فإنهم يقدرون أيضًا على الفساد والفجور. وقليلاً ما نتحدث عن الجريمة عند الأطفال، بينما توجد الجريمة بين المراهقين، ومن دراسة برت G. Burt وهيلى W. Healy لصغار المنحرفين من الشباب، يبدو لنا صعوبة مراسهم، فكلما زادت القوة الفردية، زاد انتزاعها لعادات الطفولة الواحدة بعد الأخرى، وتتمكن الاتجاهات الشريرة من الظهور، وتجد منفذًا لها في "الفساد" الذى يسمى "بالجنون الخلقى" وفيه يفعل الشخص الشر لما يحس به عندئذ من سرور. ودون أن نبلغ حد المرض النفسى، كم من مرات دهشنا فيها من سلوك الشباب بما فيه من أنانية وخشونة ووقاحة حقيقية أو مصطنعة وحب ارتياد الأوساط المشبوهة!.

وهذا هو الجانب السيئ، ولكنه لا يجب أن يخفى عن أعيننا الإمكانيات الأخلاقية المحددة التى تحملها المراهقة، فإن الحياة الأخلاقية للطفل لم تكن إلا انعكاسًا لتأثير الوسط الأسرى والمدرسى على سلوكه. ولكن بعد البلوغ، لا يكتفى الفرد الذى يتطلع إلى العالم والكائنات بمنظار جديد "بالعادات الطيبة" التى كانت تثبت فيه، إذ تبدو له قليلة الشأن ناقصة إذا ما قيست برغبته في الكمال والمطلق، لذلك تعرض كل صعوبة يلتقى بها لنوع من الافتتان، فهو يهوى المجد والخلود، ويحس في الرغبة في التفوق على نفسه، ولا تفلت

القيم الأخلاقية من نفس هذا القانون الذى تخضع له حياة المراهق الفكرية، فيتجه بغريزته إلى أكثر هذه القيم سموًا حتى تكاد الأخلاق أن تصبح في نظره نوعًا من الرياضة التى تتيح له فرصة الشعور بالقوة والإرادة. ويتفق كل من المثال الجمالى والمثال الأخلاقى عند الشباب، وهو ملح ومنظم، غير وثيق التماسك دائمًا، ولكنه ليس أقل ما يثير فينا الدهشة في سن يفيض بالمفاجآت. وفى المراهقة، تبدو الأخلاق كارتباط كامل لا كمجموعة من المبادئ. والواجب كحقيقة مادية لا كتجريد فلسفى. وليست الأخلاق خضوعًا لأى من الأخلاقيات الاجتماعية، بل هى محاولة لرفعة الفرد كله ولا يقبل الشباب على الحكمة التى يرونها غير ذات بال ولا تجدر إلا بالشيوخ: كما أنهم يحلمون مثل إيمرسون، في ربط عجلة حياتهم بالنجوم، وما أشقى وأتعس المربى الذى يتغاضى عن الإفادة من هذه الطاقة عند الشباب!.

وتمتاز قيم الحياة الأخلاقية عند الشباب، أى فضائله، عن قيم البالغين حتى ولو كانت تحمل نفس أسمائها، فيرى الشباب في التضامن إخلاصًا، وفى الطيبة إشفاقًا، وفى الرحمة التى كانت يصعب على الطفل ممارستها نوعًا من الخلق البطولى. وهناك قيم يفضلها المراهقون عادة: مثل الشرف وهو الطرف البراق للعزة الشخصية، والإخلاص العميق، والشجاعة التى تبلغ حد التضحية من أجل قضية يخدمونها، وكل هذه ميزات تهيئ السبيل – كما نرى – لتفتح الإمكانيات الفردية وازدهارها.

القيم الميتافيزيقية والدينية: وإلى جانب المثال الأخلاقى، تكتشف المراهقة القيم الميتافيزيقية التى غالبًا ما تكون مختلطة به، ويتقمصها، فيولع الطلبة الشبان بمناهج الفكر التى تحاول إيجاد تفسير معقول للكون وكذلك جواب لكل المشكلات التى يقيمها القدر الإنسانى. ويتفق هذا السعى مع حاجتهم الملحة إلى سبر غور الأشياء بما يتجاوز مجرد التجربة المحسوسة، وذلك بفضل القوة غير المحدودة التى ينسبونها للعقل. ونحن نعرف أن أوجست لوكونت كان يجعل من المراهقة، في قانونه عن الحالات الثلاث، سن الميتافيزيقا.

ولا شك أن قلة هم الذين يستسلمون للتأمل في السببية والحتمية والمادة أو السبب الأول. ولا يقوى جميع المراهقين هزة الميتافيزيقا إذا ما واجهوا سرًا من الأسرار، ولكن عددًا كبيرًا منهم يحسون أمام مشكلات الكون وإزاء حياتهم الخاصة بذلك "القلق" الذى يعتبر طريقًا آخرًا مؤديًا إلى الميتافيزيقا.

ومن العسير أن نفصل تمامًا، في تفكير المراهق، بين مجال الميتافيزيقا والمجال الدينى الذى تتجمع فيه كل القيم الروحية.

ويبدو أن علماء النفس قد اتفقوا على اعتبار أزمة البلوغ كانتفاضة مفاجئة للشعور الدينى، إذ يلاحظ الاتجاه للتدين حتى عند الأفراد الذين كانوا فيما مضى لا يبالون بمشكلة الإيمان والذين يعودون إلى لامبالاتهم في سن النضوج. وتقع هذه النزعة الدينية – كما يقول ستانلى هل – في حوالى سن السادسة عشرة. ويمكن اعتبار "الدخول في الدين" عند حدوثه، كما لو كان صورة مركزة ومختصرة لنمو الشخصية، فهو يسمح للمراهق الذى تتنازعه القوى المتعارضة أن يعثر على وحدته وسبب وجوده في الله، وكذلك أن يشبع حاجته الجامحة للحب والكمال والتفسير. وهكذا يكفيه الله مئونة القلق الداخلى ويعاونه على الدخول في إطار الحياة العامة. وهكذا تنتظم قيم الحياة في تسلسل بالنسبة لقيمة عليا.

أما بالنسبة للذين لم يتلقوا تعليمًا دينيًا خلال طفولتهم، فلا توجد مثل هذه الحركة المفاجئة، بل يقوى حب الله ويبتعد أكثر فأكثر عن عاطفة البنوة التى كانت تدخل معه في علاقات وثيقة خلال السنوات الأولى من الحياة. كما يرى بوفيه P. Bovet، ويأخذ شكل حاجة إلى التدين تصاحبها عند الفتاة عادة نزعات صوفية، وفى هذه اللحظة بالذات يتحدد الميل إلى المهن الدينية.

ولكن كثيرًا ما يمر إيمان الشباب بأزمات متعاقبة عندما يتعارض السلوك والقيم التى اكتشفت حديثًا، وهذا ما يحدث عندما تصطدم القيم الدينية ببعض القيم الاجتماعية التى تستهوى الكرامة،

أو عندما تثور الرغبات الجسدية على قواعد الأخلاق الدينية، فيخشى على الإيمان من الهزيمة أمام الشهوات التى تنطلق من عقالها. وفى مجال الفكر، يسعى المراهق للتوفيق بين معتقداته ومعلوماته، وغالبًا ما تظهر نوبة من الشك في حوالى سن السابعة أو الثامنة عشرة، خاصة عند الطلبة، عندما يبدو لهم التناقض بين العقيدة وبعض نتائج العلم أو بعض وقائع الحياة اليومية، وذلك عن طريق التفكير النقدى. وقد لاحظ بعض علماء النفس من حدوث هذه النوبات عندما تكون التربية الدينية لا تزال في بدايتها، فتكون بذلك أشبه بالثوب الذى يتخلص منه الإنسان عندما يجده معيقًا له. ومن المؤكد أيضًا أن هذه النوبات تحدث في حالات أخرى، ويخرج منها الشباب وقد ضاع إيمانهم أو قوى بالتجربة، بينما يحتفظ البعض لنفسه بدين شخصى بعيد إلى حد ما عن العقيدة الصحيحة. ويمارس الاتصال بالقيم الدينية دائمًا تأثيرًا عميقًا على تكوين الشخصية وذلك بإرغامها على تحديد معالمها بما يتفق والعالم الخارجى.

من الأنا إلى الشخصية: ونلاحظ الآن جيدًا التقدم الأساسى الذى يتحقق خلال المراهقة في مجال الشخصية.

1- يتكشف إحساس الفرد بذاته بالتفكير وأحيانًا يشتد هذا الإحساس في فترات معينة.

2- تنفذ إليه الشخصية الاجتماعية من خلال المشكلات التى سبق لنا تحليلها.

3- يسمح السعى إلى قيم الحياة للشخصية بتحديد مكانها بالنسبة لهذه القيم وتنظيمها في جهاز متماسك. وهكذا نصل إلى المبدأ الأخلاقى "للشخصية" ويقوم على الذات، وتعبر عنه الشخصية الاجتماعية، وأخيرًا ينتسب إلى حقيقة عليا أسمى منه.

وكذلك نلم بالدور الرئيسى للقوى الروحية في هذا العمل البناء. فيوجد بين اللحظة التى يحس فيها المراهق بقيمته الذاتية واللحظة التى تستولى عليه فيها قيم اجتماعية قليلة الشأن أحيانًا. فترة

من الوقت يجب حمايتها واستثمارها، وهى الفترة التى يتم فيها السعى وراء قيم جمالية أو أخلاقية أو دينية تسمح لشخصية الشاب باكتساب أهميتها وسموها. وبفضل هذه القيم، يميل التعارض بين الفرد والمجتمع إلى التلاشى، إذ يجد كل منهما نفسه تحت سيطرة قيم أكثر رفعة.

وتتغير هوية الشباب الإنسانى الذى تحددت معالمه تبعًا لهوية القيم التى تحيط به. فأى القيم يختار؟ وما مدى الأهمية التى يعطيها لكل منها؟ تلك هي الأسئلة الرئيسية، الأسئلة الملحة التى تواجهها الأيديولوجيات المختلفة، ولن أتورط في اختيار يقع جزء منه على عاتق المربى وحده. ولكن مهما كانت القيم التى نفرضها على الشباب، علينا أن نراعى اتفاقها وميوله، فلتكن هناك "مثالية" تدعوه للحماس وللجهد الشخصى والإخلاص مستعينة في ذلك بطاقته للحب، حب الشرف والواجب والجمال والله، فهذه طريقة تحمل بها كل قيم الحياة إلى أسمى مستوياتها. ولكن بينما نحن نرشد الشباب إلى هذا الطريق، علينا أن نذكر إمكانياته، فإن المثالية التى تفوق طاقة البشر تفقده القدرة على السعى، كما أن الجهود العنيفة تؤدى إلى الفشل الذريع الذى يثخنه بالجراح أو يفت من عزمه، ولكن التمرين المعنوى مثل التمرين المادى، يجب أن يكون تدريجيًا ومحدودًا.

ومن بين "منهلى الأخلاق والدين" اللذين تعرف عليهما برجسون، ينهل الشباب أولا من "الأخلاق المفتوحة"، لا الأخلاق الاجتماعية، ويضطربون في سن الخامسة عشرة أو السابعة عشرة بنداء كل ما هو مقدس أو بطولى، ويودون لو أعادوا بناء العالم، والتخلص من الشر، ونشر العدالة المطلقة. وعلينا ألا نبتسم أو أن نغضب، فقد تفتح السماء أبوابها مستجيبة لهؤلاء الذين يسيرون وقد رفعوا أعينهم نحو القمة.

الخاتمـــة

المراهقة قيمة: توشك رحلتنا للكشف أن تنقضي، قد أتاحت لك أن ترى – أو على الأقل هذا ما أتعشمه – أن للمراهقة أهمية كبيرة في حياة الكائن البشرى. وربما تعتقد أن كل المشكلات التى تواجه الشباب عبء ثقيل على سن صغيرة عرف عنها الاضطراب وعدم الاستقرار ولا تصلح – كما يرى البعض – إلا للحلم أو التضجر. ولكن علم الشباب يمكننا من الاعتراض على هذا الوهم الخطير عند البالغين؛ إذ تدل دراسة المراهقة بالطرق العلمية للبيولوجيا وعلم النفس وعلم الاجتماع. أن هذه الفترة تمتاز على العكس بالثراء بكل الإمكانيات وبتمهيدها الجاد لحياة البالغ حتى يمكن القول إنها الفترة التى تتحدد فيها معالم كل مصير.

وقد أحس بهذا الرواد الأوائل مثل ساندرسون Sanderson وبادن باول Baden Powell في إنجلترا، وليتز Lietz ووينكين Wyneken في ألمانيا، كما وضعت الحكومات بدورها الشباب فى أول قائمة اهتماماتها فهل تقوم بإعداده؟ لا شك في ذلك، ولكن هناك سببًا آخرًا لذلك. فبالإضافة إلى الرغبة في الاعتماد على العناصر الشبابية التى ربيت طبقًا لنظام الحكم المعمول به، توجد فكرة حديثة جدًا، وهى أن للشباب قيمة خاصة به، وأنه يمثل نمطًا للحياة له جماله وروعته، وأنه يجب أن يقود كل تطور لاحق في حياة الفرد. وقد اعتدنا ألا نعول إلا على أحكام الرجل الناضج ونشاطه وكأنما لا يوجد شيء آخر سابق له، وكنا في ذلك نستجيب لميل منا للاستقرار. ولكن ما كشفت عنه بلاد مثل ألمانيا وورسيا وإيطاليا من خلال انتقاضاتها، اكتشفته فرنسا أيضًا بدورها؛ إذ إن للشباب قيمته التى يمكنها أن تعمق مفهومنا للحياة.

وربما كان هذا الكشف الأخير في المراهقة هو أهم ما تم فيها من اكتشافات، فهو يتعلق بظاهرة الإحساس الجماعى الذى نعيش فيه دون أن نقيم له وزنًا كاملاً أو أن نتنبأ بعواقبه. ويمكن أن نجد بعض عناصر هذا الإحساس واضحة تمامًا في الحركة الرومانسية التى

تستمد جزءًا من أصالتها في قيامها كذوق وفلسفة للمراهقين؛ وكان في انتصارها نصر للفنائية والذاتية. ونصر لقيم الشباب على قيم البالغين، وهو نصر للعاطفة على العقل، وللمثل الأعلى على الحكمة، وللحركة على الجمود. ويحاول عصرنا أن يحقق في الحقل السياسى والاجتماعى ما حققته الرومانسية فى المجال الفنى، سواء في الشعر أو الموسيقى أو التصوير. أى في الفنون الثلاثة التى تعد مرتعا خصبا للغنائية. وهكذا كان الاهتمام العميق بحركات الشباب مثلاً يكمن في جهودها لتحقيق "حياة" شابة كاملة.

رسالة المراهقة: ولما كانت المراهقة ترتبط بحقيقة روحية فإنها تعتبر قيمة في حد ذاتها. ولما كانت قيمة، قامت محاولات لتحديد رسالتها في حياة الفرد أولا، ثم في حياة المجتمع ثانيًا.

ودورها في حياة الفرد هو أولاً إتاحة الفرصة له "كى يكتشف الكائنات"، أى أن يكتشف نفسه والآخرين كذلك، أو الأنا والأنت كما يقول M. Buber، وأن يلم بها في حقيقتها المثلثة، الفردية والاجتماعية والمثالية. وقد وضحت لك من قبل أن المراهق يحقق ذاته بالمعارضة وأنه يحس بنفسه باتصاله بالآخرين. ونتيجة لذلك لا يرى المراهق الآخرين إلا على صورته، أى ككائنات مفردة تسهم في الحياة الاجتماعية سواء تعلق الأمر بالأنا أو الأنت، فهو لا يرى هذه الكائنات إلا من خلال خياله العاطفى، في صورة شخصيات مثالية ذات ملامح رئيسية فقط.

أما الدور الثانى للمراهقة فهو إتاحة الفرصة للفرد لتوسيع أفقه إلى أقصى حد ممكن وبذل كل قوته والتعرف على إمكانياته المختلفة قبل أن يقدم على اختيار قاطع يعلن عن بلوغه مرحلة النضوج. فالنشاط الذى تعرفه المراهقة لم يعد مجرد لعب كما في الطفولة، كما أنه ليس بالجهد الفعال الراسخ كما عند البالغ. ولكنه نوع من "اللعب الجاد" الذى يعبر عن التوجيه والارتباط والإعداد.

وهكذا تكون أهم ميزة للمراهقة هى أنها لا تبقى على الفرد في حالة سابقة للنضوج، ولكنها تدفع به إلى حدودها، وربما إلى أبعد من الحدود المتعارف عليها للإنسان. فالشباب بفضل خياله الفياض وفضوله متعدد الجوانب، هو أفضل مرحلة لما يمكن أن يسمى "بالتحول الفكرى" ففيه تتكون الأفكار الجديدة ووجهات النظر الفردية وأنواع الإبداع الذى سيظهر في المستقبل، وكل ما تعتمد عليه رسالة كل فرد.

وأخيرًا تتيح المراهقة لاتجاهاتنا الأساسية إزاء الحياة أن تنتظم، وعندما نصل لسن النضوج تعود إلينا ذكراها حية في ساعات الملل، فتكون لنا نبعًا دافقًا من الثقة والنضرة والصفاء.

وإذا كانت هذه الرسالة المراهقة في حياة الفرد، فلعلك تحدس الآن ما يمكن أن تكونه في حياة البلد، إذ يجب أن تكون المراهقة أولا وقبل كل شيء "العنصر الديناميكى (المحرك)" للجسم الاجتماعى، فهى مصدر الحماس والطاقة فيه، كما تبعد بقوتها عن الجماعة كل جمود وتصلب لأنها لا تزهد في التغيير كما هو الحال في سن النضوج، بل تحبه. وكذلك يجب أن تكون المراهقة "عنصر مثالية"، وهو العنصر الذى يتعطش دائمًا للإخلاص وإنكار الذات. ويكره التآمر والخديعة، وبذلك يحمى قيمه الخلقية التى يفسدها التمادى في المرونة. وهكذا تستطيع المراهقة – بل وهذا ما يجب عليها – أن تسهم في سلامة الحياة العامة وتقويتها.

من أجل مراهقة متفتحة: ولا تقوم المراهقة برسالتها كاملة إلا بتوافر شرطين: فيجب أولاً "أن تتحقق وأن تتفتح وتزدهر عند الجميع" وثانيًا "أن تأخذ مكانها بالنسبة للحياة الإنسانية في مجموعها".

وقد رأينا كيف يمكن للتربية أن تعاون الشباب في نموه بمواجهة كل حدث هام في حياتهم البيولوجية النفسية. ولن أعود إلى هذا الحديث ثانية، ولكن هناك مشكلة خطيرة تعترض الكثيرين ممن

اضطروا منذ وقت مبكر لتكسب حياتهم دون أن يكون لديهم الوقت الكافى "للمراهقة" – إذا أمكننى أن أستعين بمثل هذا التعبير؛ ففى المزرعة، وبخاصة في المصنع، يصلون سريعًا للنضوج بالاتصال الدائم بالبالغين من الغرباء، وكذلك بالخبرات المبكرة التى يحصلونها. فإذا كان الشباب في واقعه قيمة، كان من الواجب أن يتمتع كل العمال من الشباب بتذوق حلاوة الحياة الشابة، وأن نحميهم من المراهقة المبتورة بإطالتها بقدر الإمكان وبالسماح لهم بالتفتح في تنظيمات مرنة متنوعة مثل حركات الشباب، وبيوت الشباب، وأندية الشباب إلخ ... وهناك مشكلة أخرى تواجه الطلبة، وليس لنا أن نخشى عليهم من مراهقة مختصرة، بل على العكس من مراهقة طالت وزاد اقترابها من نمط الحياة في الطفولة. وهنا يجب مراعاة أن يشعر هؤلاء الشبان بالميل لأنواع النشاط الحقيقى، وأن نجنبهم الانطواء على أنفسهم لفترات طويلة وفقد الصلة بالحياة الاجتماعية. وهكذا يمكننا، بالحد من النوع الأول، وبدفع النوع الثانى، أن نقيم تماسكًا ووحدة بين الشباب بأن نسمح لكل فرد بتحقيق ذاته بطريقة طبيعية.

ولعلك تعرف ما يعنى "بإعداد الشباب"، ولا يكون هذا بتجمده لصالح حزب معين أو أيديولوجية معينة، ولكن بتفتحه في ذاته، ولا يكون باستبعاده لخدمة إطار واحد يختنق فيه، بل بتمرسه الدائم على العمل الشخصى. ويحتاج المربى الذى يود تحقيق هذه المهمة الصعبة لعقل واع وحب عميق للشباب، فعليه أن يهيئ الفرصة لتفتح القوى الكبيرة الكامنة في المراهق وربط كل إمكانياتها بالواقع مع حمايته فى نفس الوقت من التطرف، فهو عيب تتصف به طبيعته، فهذا يعنى تحول التقليد إلى قلق والحماس إلى تعصب وتجميد روح الاستقلال في قالب من العصيان. ولكى نعد الشباب يجب أن نلهب إمكانياته وأن ننظمها، وبهذا الشرط وحده يمكن للشباب أن يقوم برسالته وأن يحقق الرفعة للوطن.

المولعون بالشباب: ويجب ثانيًا أن يوضع الشباب داخل إطار الحياة حتى يصل إلى تحقيق أهميته كاملة وإلى معرفة حدوده. وقبل

أن تثبت الحرب العالمية الثانية أن الشباب قيمة بشرية ثمينة وأن علينا أن نبحث فيها عن دروس قيمة، كنت أنادى بذلك كله، وجاءت الأحداث لتقوى عقيدتى هذه. ولكن الشباب ليس وحده هو كل القيمة مع أن الحماس قد يدفع البعض الآن إلى القسم به فهو في رأيهم نوع من الكمال السامى، ويرون أن كل المنى في محاولة الاقتراب منه بقدر ما يمكننا. وهذا انحراف طبيعى جدًا، ولكنه خطير.

وهو طبيعى لأن الإغراء فيه كبير إذ نرى في المراهقة أو فترة حمية الشباب أجمل لحظات العمر، وفي ميزات هذا السن نموذجًا للكمال. وهو خطير لأن هذه الميزات لا يجب أن تحول أنظارنا عما بها من نقص، فإن رغبتها في المطلق ليست مطلقة، وعندما نرى فيها نوعا من الإعجاز الحى فإننا نغرس في رءوس الشباب زهوًا وتباهيًا لهما ضررهما، إذن علينا ألا نتمادى في الخلط بين القوة والعقل.

وألا ننسى أنه طالما كانت المراهقة قيمة إنسانية كان عليها أن تنضم، ككل القيم الأخرى، إلى قيم أعلى منها، فالبطولة ليست فضيلة إلا بارتباطها بقيمة عليا، وهى القضية التى يدافع عنها الإنسان مضحيًا في ذلك بحياته، وإلا انحرفت البطولة إلى عنف، وكذلك تتحدد المراهقية الخلقية كقيمة بالنسبة لحقيقة أعلى منها، وهى عزة الإنسان، فهى لا تستطيع أن تكتفى بنفسها، مثلها في ذلك مثل المراهقة البيولوجية أو النفسية، إذ إنها ليست سوى حلقة في سلسلة، ولا تأخذ لذلك قيمتها إلا إذا كان من الممكن تخطيها. وقد جعل اليونان من هيبى Hebe آلهة، ولكنها لم تكن الإرادة الإلهية العليا في الأولميت.

حقا إن الشباب يمر سريعًا وأن العيون المتعطشة للجمال يحزنها أن ترى الزهرة وقد ذبلت، ولكن ذلك لأنها تنسى سبب وجود الزهرة، وهو الثمرة نفسها. وحقًا كذلك أن النضوج لا يعنى دائمًا بوعود الشباب وأنه كثيرًا ما يبدو كما لو كان تهاويا أو نكوصا. ولكنه إذا كان نشاطنا بالاختيار الملزم، فإنه يزيد أيضًا من فعاليته،

ولا يبدو تقهقرًا من الناحية الأدبية إلا إذا قبلناه كذلك؛ إذ يتوقف علينا نحن أن يلى المراهقة نضوج جدير بها. وبعبارة أخرى، نضوج أسمى منها.

وكل مرحلة في نمونا تعتبر قيمة في واقعها. ولها رسالة خاصة بها، وعلى الرغم من تمايز هذه المراحل إلا أنها متماسكة إذ تترك كل منها في المرحلة التى تليها أثرًا يزداد عمقه كلما استطاعت المرحلة الأولى أن تنمى إمكانياتها بطريقة كاملة. وهكذا يلهد القط الصغير، ولكنه فيما بعد سيصير قادرًا على اللعب مع صفارة، كذلك تعد المراهقة المثمرة لانتصارات سيعرفها سن النضوج، كما أنها تستمر في التأثير عليه.

وبذلك يعتبر التغاضى عن المراهقة أو إنكارها إسفافًا، والأسف عليها ضعفًا، والتمسك بها خطأ ولكن يجب أن يبقى فينا كل ما بها من خير كقوة مركز ومثل حى ومنهج للعمل نسعى لتحقيقه.

والله يقول الحق وهو يهدى السبيل
وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
خادم القرآن محمد بن محمود العبد الله